

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

Features of Critical Realism in the Modern Algerian Novel -Study of Origin and Development-

فتحي بوخالفة¹

1- مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة المسيلة، الجزائر / fethi.boukhalfa@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/04/29 تاريخ القبول: 2024/06/02 تاريخ النشر: 2024/12/31

Abstract : The study focuses on the theoretical study of critical realism in the modern Algerian novel in its various languages. In this paper, the theoretical and historical perspective of critical realism is addressed where it originated and developed in international literature in general. The paper deals also with the absorption of critical realism by the modern Algerian novel since its first foundations as a literary and artistic discourse to the new historical developments that emerged later as a result of the development of the historical, social and economic contexts. This had a direct reflection on the Algerian cultural and literary mentality.

Keywords: critical realism, the Algerian novel, development, social system, Historical context, dialectical transformations.

المخلص : يعنى البحث بدراسة نظرية للواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة، بمختلف لغاتها من حيث النشأة والتطور. حيث يتم التطرق إلى المنظور النظري والتاريخي للواقعية الانتقادية من حيث نشأتها وتطورها، في الأدب العالمي بصفة عامة، ثم استيعاب الواقعية الانتقادية، في الرواية الجزائرية الحديثة منذ تأسيساتها الأولى، كخطاب أدبي فني، إلى التطورات التاريخية الجديدة التي عرفتها بعد ذلك، نتيجة تطور السياقات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، التي كان لها الانعكاس المباشر، على الذهنية الثقافية والأدبية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: الواقعية الانتقادية، الرواية الجزائرية، التطور، النسق الاجتماعي، السياق التاريخي، التحولات الجدلية.

المؤلف المرسل: فتحي بوخالفة

الاميل: dr.boukhalfa@gmail.com

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

تمهيد:

لم تلق الواقعية من الناحية المنهجية في البداية، قبولا لدى النقاد العرب المعاصرين، مع استثناء بعض المحاولات والتجارب التي لا تكاد تذكر، والتي أبدت تعاملًا منهجيًا محدودًا مع المصطلح، نتيجة دراسة بعض الآثار الأدبية العربية الحديثة. وتعتبر الواقعية بمفهومها الشمولي، من أكبر المدارس الأدبية والفنية، التي صاحبته تغييرات عميقة بأبعاد سياسية تارة، وأبعاد أدبية تارة أخرى من النواحي الخارجية للعمل الأدبي. لكن النقاشات الفكرية تمكنت في النهاية، من إفراز الأعمال الأدبية والفنية الخالدة، والتي امتدت على مر الأزمان والحقب التاريخية.

وتتميز الواقعية عن سائر الاتجاهات الأدبية الحديثة، بخصائص جوهرية عميقة (صلاح فضل، 1978، ص 05)؛ حيث تعد من أهم المذاهب الأدبية الأكثر حيوية. فقد عايشنا الاتجاه الرومنسي، واستطاعت أن ترث تراثه الأدبي. كما تجاوزت حدود المذهب الطبيعي، من حيث طروحاته الاجتماعية والعمالية. وخلال هذه التطورات لم تفقد الواقعية، قدراتها على التجديد واستيعاب التجارب المذهبية السابقة، وتطويرها في الآن ذاته. واتسمت الواقعية في حركتها الداخلية بالتطور والنمو، فشملت عناصر تجديدية هامة، أسهمت أكثر في دفعها لتقلد مواقع أدبية أكثر أهمية.

1- عوامل نشأة الواقعية:

أسهمت عوامل تاريخية موضوعية في نشأة وتطور، الواقعية الحديثة كمذهب أدبي، لاسيما التحولات التاريخية الهامة، التي مرت بها المجتمعات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الميلادي. وارتكازا على هذه التحولات التاريخية، تمكنت الواقعية من تجاوز الحدود الكلاسيكية التقليدية، التي قامت على أساس الفهم الأوروبي لمبادئ الفلسفة الإغريقية، إلى جانب استيعاب قيم التراث الفني الإغريقي، وكذا الأطر الرومنسية المحدودة، والتي «لم تكن سوى تعبير جاد عن تأزم المشكلة الفردية في ظل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأوروبا الغربية» (...) والرغبة في التحرر من القيود الكلاسيكية التي كانت قد أرهقت روح الإبداع الفني، بشروطها المتعسفة» (صلاح فضل، 1978، ص 07) هذا التغير الجذري هو نتاج للوعي، بجملة العوامل الإيجابية للوجود التاريخي للأدباء والمبدعين.

فتحي بوخالفه

حاول الاتجاه الواقعي برؤيته الشمولية، التعبير عن مختلف التجسيديات، والقيم المناقضة لكل ما هو مثالي بداية. وظل لفترة طويلة يدل على الاعتقاد بالأبعاد الواقعية للأفكار، ويناقض التوجهات المثالية التي سادت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر الميلادي وما بعده، لتكتسح الواقعية بشكل كبير الساحة الأدبية والفكرية. ويبدو أن المفكر الألماني "شيلر" هو أول من نقل مفهوم الواقعية إلى الأدب. والذي يرى في كتاباته التي كانت تصدر خلال سنة 1798م، أن الأدباء الفرنسيين، كانوا واقعيين أكثر منهم مثاليين (صلاح فضل، 1978، ص12) ومع ذلك فالجهود الأدبية والفنية، التي بدلت بداية، لم تمكن الواقعية من التأسس كروية فنية وأدبية عميقة، بشكل واسع، إنما بقيت تراوح مكانها آنذاك على نطاق ضيق.

2- مصطلح الواقعية :

حاول الباحث الفرنسي "جوستاف بلانش (Gustave Blanche) سنة 1833م، استخدام مصطلح الواقعية، وفق قناعاته الفكرية. مع أنه واضح جداً، أن "جوستاف بلانش" عرف بمعاداته للتوجهات الرومنسية، إلا أن جعل المصطلح يدور في حدود ضيقة، حيث لا تعني الواقعية بالنسبة إليه غير المحسوسات المادية، كوصف أطراف الجسم، والملابس، وبعض الوسائل التي تستخدم في حياة الإنسان اليومية، وبعض تفاصيل المحيط الاجتماعي، والتي غالباً ما تأخذ أحيانا مكانية.

ومع بداية تعقد الأوضاع الاجتماعية، وظهور الصراعات الطبقيّة، والتي انعكست بصورة واضحة، على الأنماط الجمالية والأدبية، بدأ مصطلح الواقعية يخرج عن حدود أبعاده الضيقة، ليأخذ أصالة فكرية ، جسدها فيما بعد الأدباء الواقعيون في "فرنسا" و"روسيا" على وجه التحديد.

3- الواقعية عند بلزاك :

لقد كانت التنظيرات الجديدة للمصطلح، على يد الكاتب الفرنسي "أونري دي بلزاك " Honoré De Balzac في مقدمة مجموعته القصصية الشهيرة "الكوميديا البشرية La Comédie Humaine التي نشرت لأول مرة سنة 1842م. ثم أديع المصطلح بعد ذلك، ولم يكن ضمن حدود ضيقة كما كان عند "جوستاف-بلانش" مثلاً، ثم كانت تنظيرات الكاتب الروسي الشهير "تولستوي"، حيث لا يمكن فهم مصطلح "الواقعية الانتقادية"، إلا من خلال

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

رؤية "بلزاك" و"تولستوي". وكذا بالرجوع إلى إنتاجاتهما الأدبية، والظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي أسهمت بقوة في إنتاج أعمالهما. عبرت رواية "الفلاحون" لـ"بلزاك" عن مرحلة النضج الفكري للواقعية الانتقادية، وإحاطة المصطلح بمختلف الخلفيات التاريخية والاجتماعية للوضع الاجتماعي السائد آنذاك. فما تم تصويره في الرواية لم يكن تعبيراً صريحاً، عن مأساة الوضع الاستقرائي، الذي كان ضمن أطر تاريخية وقتها، إنما هو المأساة التاريخية التي كان يمر بها صغار الملاك في المجتمع الفرنسي. وهو الأمر الذي جعل من "بلزاك" كاتباً شهيراً وقتها. فالصدق الفني كان الهدف الأساسي لرواية "الفلاحون"، حتى لو تناقضت حيثيات الواقع، مع الآراء والآمال والقناعات، التي انتصر لها النص والكاتب معاً. وهذا ما أكدّه "جورج لوكاتش **George** " **Lucas** بقوله: «فلو كان بلزاك قد نجح في أن يخدع نفسه، بحيث تستغرقه خيالاته المثالية، بدلاً من الوقائع. ولو كان قد قدم لنا واقعا ليس إلا مجرد أفكاره، ورغباته الخاصة. لما استحق أن يكون موضع اهتمام من أحد، ولكان جديراً بأن يطويه النسيان شأنه شأن العدد الهائل من معاصريه، مؤلفي الكتيبات الصغيرة الذين شرعوا للاقطاع ومجوده» (جورج لوكاتش، 1972، ص44).

تمكن "بلزاك" برؤية الكاتب المتمرس من إدراك طبيعة النمط الثابت للرأسمالية، وما يصاحب هذا النمط بصورة حتمية، من تطور في أشكال الديمقراطية؛ هذا النمط الثابت حتما سينتج ثورات اجتماعية طال الزمن أم قصر. والتي يمكن لهذه الثورات الإطاحة بالمجتمع الرأسمالي، الذي بنى تقاليده البرجوازية على الربح والاستغلال المادي، للقوى البشرية العاملة. من هذا المنطلق «كانت أعمال بلزاك العظيمة، قصيدة رثاء، طويلة يندب فيها السقوط الحتمي للمجتمع الفاضل» (جورج لوكاتش، 1972، ص46). هذه الرؤية لدى بلزاك، تجد لها مبررات طبيعية، بحكم المرحلة التاريخية التي عاشها، والتي تميزت بـ"الاشتراكية الخيالية"، رغم الحركة العمالية، التي كانت قد بدأت في الظهور في أوروبا، وبالتحديد في المجتمع الفرنسي، إلا أنها كانت محدودة. فرواية "الفلاحون" تمكنت من تصوير المعاناة الاجتماعية للفلاحين، في الريف الفرنسي. ولم يتمكن "بلزاك" من النجاة من الأخطاء، نتيجة أخطاء الواقعية الانتقادية في حد ذاتها، والتي كانت في بداياتها آنذاك. حيث اعتقد أن «ثورة 1879 هي التي تسببت في هذه الشهور كلها مثل تقسيم الملكيات الكبيرة». إلى جانب النمو السريع للرأسمالية التي فهمها أساساً

فتحي بوخالفه

كعملية لإقراض المال بالربا، وهو مفهوم مبرر تماما في فرنسا، في عصره. ذلك لأن المشكلة الرئيسية للتاريخ الاجتماعي الفرنسي، كانت تنحصر عند بلزاك في الطريق الذي نمت من خلاله وسط عواصف الثورة، ثورة البورجوازية بانتزاع الملكيات الكبيرة الأرستقراطية، وبالمضاربة بالعملات البخسة، وباستغلال الجوع وندرة المواد الغذائية، وبشكل آخر، بالتعاقدات المزورة مع الجيش» (جورج لوكاتش، 1972، ص 52). وكون "بلزاك" أرستقراطيا من حيث المنشأ، ومتشيعا للنظام الملكي الفرنسي؛ هذا الجانب مثل نقطة ضعف، ليس لدى "بلزاك" فقط ككاتب، إنما في الاتجاه الواقعي الانتقادي بصفة عامة. ومع ذلك لم تقدم الصورة الفنية التي رسمتها رواية "الفلاحون" هزيمة لطبقة النبلاء، إنما هي حتمية هذه الهزيمة. والشئ الذي ساعد نص الرواية، على إبداع هذه الصورة، هو إبداعه لشخصيات واقعية، تتصرف وفق قناعاتها الطبقية. كما تكمن أهمية النص، في عمق الإدراك الفكري الذي تميز به، والمتعلق بفهم الظروف الواقعية، التي كانت تتحكم في تطور الرأسمالية الفرنسية آنذاك. مثل هذا الوعي مكن الرواية، من الكشف عن القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تتحكم في عملية التطور التاريخي، والمؤثرة في الحركة الجدلية لذاك التطور بشكل خاص. من خلال الوسائل الفنية الموظفة، والوعي بطبيعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية، تمكن النص من الكشف عن خصوصية الوجود الاجتماعي، المحدد لوعي الأفراد. والملاحظ أيضا أن النص، لم يلتزم بوصف الحثثيات "الفتوغرافية" التي من شأنها أن تثقل كاهله، بالأوصاف الإضافية، داخل البناء الدرامي.

من خلال رواية "الفلاحون" قدم "بلزاك" رؤية صادقة، لبؤس وشقاء الفلاحين. غير أنه لم يتمكن من تصوير إمكانيات الخروج من ذلك الواقع المجحف، الذي كان يعانيه الفلاحون باستمرار. كما لم يتمكن من تحليل أعماق الظاهرة الاجتماعية، فاقترنت رؤيته على تصوير « النتائج الناجمة عن يأس الفلاحين، وصغار الملاك، وخيبة آمالهم» (جورج لوكاتش، 1972، ص 69).

والانشغالات ذاتها التي تضمنتها رواية "الفلاحون" هي ذاتها الانشغالات التي رسمت البنى الموضوعاتية لرواية "الأوهام الضائعة" لـ"بلزاك"، حيث حاول النص طرح بعض الأسباب الموضوعية، التي يمكن أن تؤدي إلى نهاية النظام الرأسمالي من العالم. حيث يتحول الأدب إلى مجرد سلعة مربحة، من خلال تحول الإيديولوجية، تبعا لطبيعة البنى الفكرية والتي تجسد

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

البنية الفوقية. هذه الرأسمالية الكاملة والمتعلقة بمختلف جوانب النشاط العقلي والأدبي والفني،» جسدت المأساة العامة لجيل ما بعد نابليون في نماذج اجتماعية بالغة النفاذ والعمق، لم توجد في كتابات أحد من معاصري بلزاك، حتى في كتابات ستاندارل معاصره العظيم»(جورج لوكاتش، 1972، ص73).

وضمن هذه التعقيدات الطبقية، التي غالبا ما يصوغها النظام الرأسمالي، يتحول كل شيء-بما في ذلك القيم-، إلى مجرد سلعة مريحة، يتحول بموجبها الإنسان إلى مجرد كائن "ممسوخ". وفي هذه الحال كلما صار الإنسان أكثر ثقافة، اقترب من تحقيق أهدافه. يحدث كل هذا نتيجة سيطرة القيم الرأسمالية على حياة الأفراد والجماعات، بما في ذلك الجوانب المادية للأدب، على غرار ما هو متضمن في رواية "الأوهام الضائعة".

إن "بلزاك" ككاتب واقعي انتقادي، لم يقدّر بما قام به الرومنسيون المتطرفون، بتنبههم لقيم الاقطاع والرجعية. وهنا يبدو الجانب الموضوعي لـ"بلزاك"، حيث لم يهتم بمصالحه الشخصية، ولم يشغل نفسه بمشكلاته الواقعية. فقد كان يتعامل مع ذاته التي آمنت بالتطورات الإيجابية لحركة التاريخ، لا بذاته الأخرى، التي تركز قيم الرأسمالية والاقطاع، والملكية الفردية لوسائل الإنتاج. ورغم أن "بلزاك" كان يتقبل بعض القيم الرومنسية في رؤيته للعالم، والأساليب التي كتب بها بداية كانت تثبت ذلك، غير أنه كان أقل رومنسية، لأن الواقعية في نظره كانت تمثل البحث عن القيم الإنسانية الأصيلة، وهذه هي القيمة الفعلية لأعمال "بلزاك" الأدبية. حيث يقف على النقيض من توجهات الكاتب الفرنسي "إيميل زولا"، الذي طالما سعى لتطوير المنظور الواقعي، وفق الأسس الطبيعية. ومع ذلك يكون "إيميل زولا"، قد نجح إلى حد بعيد، في رسم لوحة متكاملة، عن واقع "فرنسا" الذي عاشه، خلال الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

ومع أن "بلزاك" عاصر المرحلة الإصلاحية من تاريخ "فرنسا"، إلا أنه سلك دروبا معقدة في توجهاته الواقعية، تجاوزت طروحات "إيميل زولا"، الذي لم يتبن النظام الرأسمالي البرجوازي، الذي كان من الناحية التاريخية مقبلا على الانهيار؛ إلا أن توجهاته الطبقية، التي تهدف للسيطرة وامتلاك وسائل الإنتاج، كانت تمثل تفكيرا عميقا بالنسبة إليه، وقد كادت أن تشكل شيئا من مبادئه، ومنظومته القيمية والإبداعية. فرغم إخلاصه للتوجهات الواقعية، إلا أنه لم يتمكن من التخلي، عن قيمه الطبقية.

فتحي بوخالفه

4- الواقعية عند اميل زولا:

حاول "إيميل زولا" تطوير الواقعية الانتقادية، من خلال تبني منظور علمي، يعتبر المجتمع كلا موحدًا ومنسجمًا فيما بينه. وفي حال انتقاد أي شيء في المجتمع، فالنقد يوجه للمجتمع بأكمله لا لجزء منه. ومن خلال فهمه أن دورة المجتمع، تتطابق إلى حد كبير مع دورة الحياة، حاول تطبيق، بعض نظريات "كلود برنار" الطبية على الحياة الاجتماعية. فكانت رؤيته أقرب ما تكون إلى المطابقة الميكانيكية، كما استهلك جهوده في التصوير الدقيق، لكل ما يراه في المجتمع. ورؤيته هذه صعبت طريق سير جبل بكامله، الأمر الذي جعله يقع في حبائل الرومنسية الزاخرة، بالصور والزخارف. وما ينبغي فهمه، هو أن النظام الرأسمالي الذي عاش فيه "إيميل زولا"، لم يمكنه من إنجاز ما ينبغي إنجازه، من أعمال أدبية كبرى، تضاف إلى رصيده الأدبي الوافر. كما لم يمكن أعماله الأخرى المنجزة، من تبوء مكانتها الحقيقية ضمن إطار فني واقعي فعلي. ولم يتخل "إيميل زولا" عن قناعاته الديمقراطية، رغم عجزه عن فهم المعنى العميق للاشتراكية، حتى في حال مطالبة الطبقة العمالية في "فرنسا"، بمطالبتها الاجتماعية.

5- الواقعية عند ليون تولستوي:

إن عدم الإحاطة بخصوصيات الواقعية الانتقادية، وفهم طبيعتها الجوهرية العميقة، شكل نقطة ضعف لدى كتاب الواقعية. فالكاكتب الروسي "ليون تولستوي" ظل واقعا تحت سيطرة هذا الضعف، طوال مسيرته الفكرية والأدبية، الشيء الذي أعاق تطور الواقعية بشكل عام، مع أن أمثال هؤلاء الكتاب الكبار، بقوا أوفياء لواقعهم، وسياقاتهم التاريخية التي عاشوا فيها. وقد مثلت أعمال "تولستوي" خطوات عملاقة، في تطور الواقعية. حتى عندما اقتربت من التدهور، حاول "تولستوي" إخراجها من نطاقها التقليدي، وبذلك يكون "تولستوي" أعطى قيمة فكرية وأدبية كبيرة للأدب الروسي، وللآداب الأوروبية أيضا. ومهما كانت تأثيرات "تولستوي" على الأدب الأوروبي، فإن هذه التأثيرات لم تكن منعزلة. «لقد تم عزو تولستوي للأدب العالمي، في الوقت نفسه الذي ارتقى فيه الأدب الروسي والإسكندنافي بسرعة، لم يسبق لها مثيل إلى مركز قيادي في أوروبا. حيث كان لا يزال للاتجاهات الأدبية العظيمة في القرن

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

التاسع عشر، جذورها في الدول الغربية القيادية، كألمانيا وإنجلترا وفرنسا» (جورج لوكاتش، 1972، ص153).

كان "تولستوي" ككاتب واقعي، مخلصا لتوجهاته الواقعية إلى حد بعيد. فقد سجل بكل أمانة كل معاشاته الواقعية، وهو شرط عميق من شروط الواقعية الانتقادية، التي تتطلب الدقة والانضباط في نقل الوقائع. لأن الإخلاص للواقع القائم، هو ما بقي بعد انهيار الواقعية الانتقادية، علما أن الأمانة الذاتية التي ينبغي أن يتصف بها الكاتب الواقعي، لا يمكنها أن تنتج واقعية ذات مصداقية، إلا إذا كانت تعبيراً عن تحولات اجتماعية عريضة، حيث تمكن الكاتب من خلال المشكلات الاجتماعية المطروحة، إلى التعبير عن التعقيدات الناجمة بطريقة جمالية، وهنا تكمن مقدرة الكاتب الواقعي.

و"تولستوي" خلال مسيرته الأدبية، لم يكن مجرد مشاهد أو متابع على الحياد، للعملية الاجتماعية، أثناء تطوراتها التاريخية. فقد شكلت أعماله جزءاً هاماً جداً، من الصراعات الاجتماعية وانعكاساً لها، بشكل مكن من طرح تلك الصراعات بعيداً عن "الجاهزية" و"الشوفينية".

ما ميز فكر "تولستوي" أنه يتقن جيداً طرح الأسئلة الواقعية، بشكل يمكن من الانفتاح على خصوصيات التعقيدات الاجتماعية في أعماقها، وهذا شيء هام للغاية.

قدم "تولستوي" صورة مكتملة عن العوامل الاجتماعية، المحددة لطبيعة الحركة التاريخية للعالم، وهذا يتطلب حتماً وجود خبرة كبيرة، الشيء الذي مكنه من الابتعاد عن السقوط التاريخي، حيث بقيت دائماً الإشكالية الرئيسية التي اهتم بها، هي القضايا المعيشية والاجتماعية للفلاحين الروس. ومن هنا جاءت الرؤية الموضوعية لـ"فلاديمير لينين" حول كتابات "تولستوي". «إن تولستوي لم يبدع مؤلفات فنية فحسب، ستقدها الجماهير وتقرأها دائماً، عندما تخلق ظروف حياة جديدة للإنسان بعدما تطيح بنير الملاكين العقاريين والرأسماليين. بل إنه قد عرف أيضاً كيف يعكس بقوة رائعة الحالة الفكرية للجماهير الواسعة المظلومة من قبل النظام القائم، ويصف وضعها، ويعبر عن مشاعرها العفوية، مشاعر الاحتجاج والغضب» (فلاديمير لينين، 1974، ص4).

تبدو من أعمال "تولستوي" ظاهرة فنية مميزة، هي القدرة على الدفاع عن المصالح الاجتماعية للعامة، لكن وفق الرؤية الدينية الصرفة. فقد تميزت أكثرية مؤلفاته، بالانشغال

فتحي بوخالفه

باهتمامات الفلاحين، ومعاناتهم اليومية. وإذا كان "تولستوي" تحمس كثيرا لقضايا الفلاحين، واهتمامات العامة من الجماهير، وتمكن من إعادة النظر في العلاقات الاجتماعية غير العادلة، في المجتمع الروسي آنذاك؛ فقد أبدى في مؤلفاته في الآن ذاته، عدم إدراكه الكلي للأزمات الحقيقية للفلاحين، وكيفيات الخروج منها. ومن خلال هذا لا تبدو التناقضات من وجهة نظر "تولستوي" متعلقة برؤيته الفكرية فقط، إنما هي انعكاس طبيعي لمختلف الظروف الاجتماعية والسيرويات التاريخية المستمرة، ذات التعقيدات المتداخلة. من هنا حاولت الكثير من التوجهات التقليدية والليبرالية المحافظة استغلال قضية "تولستوي"، وفق مصالحها الطبقية. والتناقضات التي وقعت فيها كتابات "تولستوي"، هي التي أدت إلى استغلال مثل تلك المواقف أبشع استغلال، من لدن تلك التوجهات التقليدية.

وعجز "تولستوي" عن إدراك طبيعة حركة المجتمع، له مبررات عديدة تفسرها أنماط التحولات التاريخية للمجتمعات البسيطة، وطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس. وواضح أن "تولستوي" يؤمن بالقيم الأخلاقية العميقة، والحقائق الدينية الخالدة، دون فهم طبيعة مثل هذه التصورات، التي هي في الأساس الانعكاس الفكري، لأنظمة المجتمعات البسيطة، مع التأكيد في هذه الحال، على موضوعية وواقعية الديانات السماوية الأصيلة. ربما من هذه الناحية، ما حدا بـ"فلاديمير لينين"، يقر بـ"طوباوية" فكر "تولستوي"؛ إذ يقول: «إن مذهب تولستوي طوباوي، لا جدال في ذلك وهو بمحتواه رجعي بأدق ما في هذه الكلمة من معنى وأعمقه. إلا أنه لا يستنتج من ذلك إطلاقاً أن هذا المذهب ليس اشتراكياً، أو أنه لا يحتوي على عناصر نقدية تقدم مواد ثمينة لتنقيف الطبقات المتقدمة» (فلاديمير لينين، 1974، ص74).. من خلال هذا الرأي، يتضح مقدار المساهمة المعرفية والفكرية، التي أسهم بها "تولستوي"، في ترسيخ دعائم الاتجاه الواقعي الانتقادي، بكل ما يحمل هذا الاتجاه من تناقضات في ثنائه، والتي وضعت التمهيدات الأساسية، لظهور توجه واقعي أكثر نضجا واستيعاباً للنماذج الاجتماعية والطروحات التاريخية، وهو "الواقعية الاشتراكية".

من خلال هؤلاء الكتاب العالميين الكبار أمثال "بلزاك"، "إيميل زولا"، "ليون تولستوي" وغيرهم... اتخذت الواقعية الانتقادية مفاهيم موضوعية واسعة، لتشمل توجهات فنية عديدة، متعددة الطروحات من الناحية الفكرية والجمالية، غير أنها بقيت تتناول مواضيع ذات أهداف قريبة وبعيدة، وهذا نتاج اغتراب الواقعية عن المجتمع الذي تعيش فيه، من خلال علاقات

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور -

اجتماعية مرفوضة، فصارت الواقعية من خلال هذا الطرح، الأقدر على تمثل حيثيات الحياة البشرية، والأعمق من حيث الوعي بطبيعة الظروف التاريخية والاجتماعية للأفراد والجماعات البشرية، كما أنها لم تعد تكفي بإدراك الجوانب الخارجية للحياة، إنما تتجاوز ذلك إلى أعماق طبيعة الحياة البشرية، لذلك توجب على الاتجاه الواقعي، فهم الواقع ونفذه بقوة.

فروية "بلزاك" هي نتاج رفض الواقع الاجتماعي الذي يحي فيه، رافضا تكريس خصوصياته وتبريرها؛ فتجاوزت واقعيته الطروحات الرومنسية، التي لم تكن تحتوي على أي رد فعل عملي، ضد المجتمع البرجوازي، الذي خيب آمال وأحلام الفئات الاجتماعية التي قامت بالثورة ضد الطبقات الاقطاعية، رافضة بذلك أية مصالح مع الفئات البرجوازية الضيقة؛ علما بأن هناك من الرومنسيين، من تحول إلى القنوات "الرجعية" التقليدية، لأنها كانت تحمل في أعماقها بوادر التحولات السلبية.

لذلك لم تعد الواقعية مجرد رؤية فكرية أو أدبية أو فنية، تعنى بتكديس الحقائق والوقائع، مهما كانت متصفة بخصوصية جوهريّة دون تنظيم، أو رؤية منهجية.

كما أن الواقعية هي التيار المعارض، لسائر الحركات التقليدية المحافظة، التي وقفت عاجزة عن فهم الأسس الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي الطبقي. هذه الأسس التي حولت الأدب وسائر الفنون الإنسانية، إلى مجرد سلعة، تتنافس عليها الأقليات الرأسمالية، مما يستدعي البحث عن مجتمع إنساني بديل، وهو ما لم يدركه حتى الواقعيون الانتقاديون. وهي الحلقة المفقودة، التي تمكن كتاب الواقعية الاشتراكية من اكتشافها.

فالواقعية الانتقادية تبشر بميلاد المجتمع الاشتراكي، غير أنها تتوقف عند حدود التصورات المثالية، تماشيا مع الرؤية الاشتراكية "الطوباوية"، التي كانت سائدة وقتها. والواقعية الاشتراكية تتجاوز هذه الحدود المثالية، وتعطي نظرة مستقبلية للبناء الداخلي للأدب. ولا يعني هذا عدم وجود، أي تطابق بين الواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية، من حيث نظرية الانعكاس الخاصة بالأعمال الأدبية؛ فكلتا الرؤيتان في النهاية تعكسان من الناحية الفنية، الواقع الاجتماعي، وتخوضان كفاحا مشتركا ضد التوجهات "الرجعية"، التي تسعى باستمرار لتكريس تقاليد وقيم المجتمع البرجوازي. وميزة الاتجاه الواقعي الانتقادي هي رفض الحلول الجاهزة، التي يطمح المجتمع الرأسمالي لفرضها على الكتاب.

فتحي بوخالفه

من الصعب تحديد الخصائص الجوهرية المشتركة، بين مختلف المذاهب والاتجاهات الواقعية الانتقادية، وهذا نتيجة اختلاف وجهات النظر بين المفكرين والكتاب، في تمثل خصائص الواقعية الانتقادية. فرؤية "بلزاك" ليس شرطا أن تكون مطابقة لرؤية "زولا"، وليس شرطا أيضا أن تطابق رؤية "تولستوي". فطبيعة فهم وتمثل الواقع، تبقى مختلفة بين الكتاب والمفكرين، وهذا تبعا لأنماط فهم وتصور الواقع، من نواحيه الجوهرية، وكيفيات تقييمه ونقده، وتقديم البدائل بعد ذلك. ومع هذا يبقى التصور النموذجي هو المحدد لمنظورات التطور الاجتماعي المستقبلي. والتصور النموذجي هو الميزة الواقعية المرتبطة بطبيعة التجربة الإنسانية، ذات التميز العميق لشخص ما، ضمن مجتمع ما، لتبقى هذه التجربة مرتبطة بالمعنى المطور لطبيعة التجربة الواقعية للفرد (ريموند وليمز، 1981، ص208)، ومن حيث الخصائص المشتركة للواقعية الانتقادية، يمكن تحديد الآتي:

1/ تتعامل الواقعية الانتقادية مع الواقع كمجال للإبداع. وهي تنظر إليه كواقع مفتوح سواء من الناحية الأخلاقية، أم من الناحية الاجتماعية.

2/ تبحث الواقعية الانتقادية عن الجوانب الجوهرية العميقة في الظاهرة الاجتماعية، التي تتناولها بالكتابة؛ بمعنى أنها تسعى دائما لتفسير الدواعي الاقتصادية والمادية، التي كانت السبب الأول والمباشر في إيجاد تلك الظاهرة. وعلى الكاتب أو الشاعر أو الفنان، أن يكون انتقاديا في مواقفه؛ بمعنى انتقاد النموذج الذي يعبر عن الكلي والجزئي، ضمن العلاقات الجدلية والتعليلية المدروسة. فالمقياس الأساسي لكتاب الواقعية الانتقادية، هو "النموذج"، الذي يمثل المركب العضوي، ويربط العام بالخاص. وبحكم أن الواقعية الفعلية، « تصف الإنسان والمجتمع ككيانات كاملة، بدلا من أن تعرض فقط مظهرا من مظاهرها » (جورج لوكاتش، 1972، ص12)، يكون النموذج هو المتضمن للعناصر الحاسمة، وكل العوامل الجوهرية، ذات الأبعاد الإنسانية والاجتماعية في تطوراتها الجدلية المستمرة.

3/ ترفض الواقعية الانتقادية، كل أشكال المصادفة والإغراق في الخيال، الذي يبعد القارئ عن واقعه الاجتماعي. فهي بذلك ترفض تمام الرفض، مسابرة القيم الرأسمالية، على عكس العديد من الكتاب الرومنسيين، الذين تحولوا إلى رموز "رجعية" تقليدية.

ورفض الواقعية الانتقادية للمصادفة، يعود إلى اعتبار كافة سلوكيات الناس وتصرفاتهم، نتاجا للواقع الاجتماعي الذي يعيشونه، ويتحدد وعيهم من خلاله، وفق أنماط الإنتاج وعلاقات

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

التوزيع. لأن الكتابة الواقعية في تقديمها لصورة صادقة عن الحياة، فإنها تكون ناقدة للواقع البرجوازي الطبقي. لأن الكتابة والتصوير الصادقين، تعنيان حتما تعرية هذا الواقع وفضحه.

4/ تسعى الواقعية الانتقادية لتغيير البنى الثقافية الفوقية، التي تطبع العلاقات الاجتماعية، لأنها بنى غير طبيعية ومضرة بطريقة بأنماط الوعي والتفكير. لذلك تهدف الواقعية الانتقادية لإعادة بناء واقع اجتماعي جديد، من خلال معطيات ثقافية، تكون بديلا للواقع الاجتماعي القائم؛ غير أن طروحاتها لا تستطيع تحديد وفهم جوهر العملية التاريخية.

5/ تمكنت الواقعية الانتقادية، بفضل طروحاتها الموضوعية، من فضح قيم المجتمع الرأسمالي، وكشف عيوبه المرسخة لمبادئ الطبقة والاستغلال.

6/ تميزت الواقعية الطبيعية بالعجز عن تطوير الواقعية بشكل عام، من حيث التحليل وفهم الدوافع الجوهرية المحركة للمجتمع الإنساني. فقد حولت الكاتب إلى مجرد طبيب فاحص، يتعامل مع كائنات اجتماعية حية. لذلك يلاحظ أن تصنيف الحياة من منظور الواقعية الطبيعية، يتميز بالوضعية المشككة لأساسها الفلسفي، ولم تتمكن من تحديد التناقضات الاجتماعية المعقدة، لأنها تنتهج منهجية غير جدلية، تفتقد للتطور، وغالبا ما نصب في الفكر البرجوازي.

وإذا كانت الواقعية الطبيعية تقلد الواقعية، فإنها تختلف عنها، كونها عاجزة عن خلق الأنموذج، وتقديم الانتقاء والبديل. «فهي تختار من الواقع موضوعات ليست لها القيمة نفسها. ثم إن الفنان الطبيعي غير قادر على أن يجعل من الحياة مقولة في حالة تطور» (فيصل السماق، 1972، ص31).

7/ تتمثل جماليات الواقعية الانتقادية في قدرتها على تقديم نماذج متكاملة للشخصية الإنسانية. فالأنموذج يحدد طبيعة العلاقات العضوية التي لا يمكن فصلها عن الإنسان كفرد، والإنسان من حيث هو كائن اجتماعي له وجود في نطاق مجتمع معين، وضمن ظرف تاريخي محدد.

8/ ليست شخصيات الواقعية الانتقادية، مجرد صور تعبر عن مظاهر معينة في الواقع الاجتماعي. حيث أن كل التحديدات الاجتماعية، يتم التعبير عنها من خلال نماذج متناقضة ومختلفة، ضمن انفعالات الشخصية ووقائع المصادفة. فمعظم الشخصيات الموظفة لدى

فتحي بوخالفه

كتاب الواقعية الانتقادية، تتحدد بفعل القوى الاجتماعية الحاسمة، ولا يمكن حدوث ذلك بشكل آلي.

9/ خضعت أكثرية الكتابات الواقعية الانتقادية، للتأثيرات الرومنسية إلى حد كبير. وتجربة "بلازاك" تثبت ذلك لكن هذه الكتابات لم تصبح فيما بعد كتابات رومنسية، وعنصر الخيال لدى الكتاب الواقعيين الانتقاديين، ينبثق من طبيعة خصوصيات الواقع الاجتماعي. فقد رفض كتاب الواقعية الانتقادية، المواقف الجاهزة للرومنسية، وزخارفها وتتميقاتها وخيالاتها. كما رفضوا النمط "السلي" للرأسمالية من حيث هي حقيقة جاهزة. فقد كان الكتاب الواقعيون الانتقاديون أكثر صراحة وجسارة، وذلك هو صدقهم.

10/ تبحث الواقعية الانتقادية عن التجديد والأشكال التعبيرية الأكثر نجاعة، كما تتميز رؤيتها الجمالية، بالبحث الدائم عن المنظور المستقبلي. ومنظورها المعرفي، هو صيغة من صيغ المعرفة، متجاوزة بذلك دواعي الاستلاب والاحتجاج.

فوظيفة الفن من منظور الواقعية الانتقادية هي الكشف عن خفايا العلاقات الاجتماعية، بطريقة جمالية وفنية. فكل التصورات المتعلقة بالعالم الخارجي، هي انعكاس في الوعي الإنساني لهذا العالم، الذي يوجد ضمن نطاق مستقل عن ذاتية الإنسان. بهذه الاستمرارية المعرفية، ذات الخصائص الجدلية المتغيرة، والتي يفرضها العمل الأدبي أو الفني، فإن الواقعية بشكل عام «تواصل إبراز سمات الحاضر المحددة بقدرة فنية متعاطمة باستمرار» (جورج لوكانش، 1978، ص13).

مع ذلك بقيت الواقعية الانتقادية، تحمل بوادر الضعف في ثناياها. وهو ضعف الحركات العمالية وفلسفاتها على مستوى العالم. حيث بقيت هذه الفلسفات مجرد فلسفات نظرية، لم تكن ناضجة وذات تجارب. كما أنها لم تخض بعد مرحلة المواجهة، ضد قيم الرأسمالية العالمية، القائمة في أعماقها على أسس الاستغلال والطبقية.

فكتاب الواقعية الانتقادية، إن سعوا لمواجهة تقاليد وقيم المجتمع البرجوازي كحتمية تاريخية، فقد كانوا من جانب آخر، عاجزين إلى حد ما عن كشف القوى، التي بواسطتها يمكن إزالة هذا المجتمع، إضافة إلى جهلهم لطبيعة وقيم المجتمع البديل، الذي يمكن أن يحل محل المجتمع الرأسمالي. فحتى في تصوراتهم النظرية لا يخرجون عن قيم الفلسفة الاشتراكية المثالية. ومع ذلك يبقى الصدق التاريخي للواقعية الانتقادية، يكمن في دفاعها المستمر، عن

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

القيم الإنسانية، «وذلك عن طريق تعرية الواقع وفضح الجوانب الظالمة وإدانة قواه الغاشمة في هجمتها الشرسة والرعناء، لتحطيم البناء الداخلي السامي للإنسان» (محمد كامل الخطيب، وعبد الرزاق عيد عالم، 1979، ص150).

ومن جانب التحفظات بشأن الواقعية الانتقادية، كروية فكرية وأدبية وفنية حديثة، لها مسارها التاريخي والاجتماعي، فيلاحظ من الناحية الأدبية والفنية، أن أعمالها تقتقد فيها لخاصية التطور والاجتماعي والملحمي، لتسود في بعض جوانب هذه الأعمال، المصالح الخاصة الضيقة والشخصيات المفتقدة للعلاقات الاجتماعية الغنية، من حيث اقتصرها على الملامح الباهتة فقط، الشيء الذي يجعلها تخلو من الحياة، رغم الإطار الجمالي الجيد، والذكاء الشديد الذي تتصف به هذه الشخصيات، في أكثرية المواطن حركية وتطورا.

تتسم العلاقات الواقعية القائمة بين الأشخاص، وأسسها الاجتماعية، إلى جانب أفكارهم ومشاعرهم، بالتناقض القابل للتطور والعمق، الشيء الذي يفقدها مع تطور أحداث ووقائع الرواية، خصوصياتها الجمالية، ذات الصلة المباشرة بطبيعة تطورها التاريخي والاجتماعي والفني.

كما أن وصف المواطن الدقيقة والإضافية في الأعمال الأدبية والفنية، صار يأخذ حيزا هاما من العمل، لاسيما في حال محاولات فهم الحثثيات الجوهرية للواقع الاجتماعي، والتغيرات الحركية ذات الفاعلية التاريخية. غير أن الواقع الذي عاشه الواقعيون الانتقاديون، كان يعمل بتلقائية على تضيق الأفق الطبيعي.

6-الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة:

وجدت الواقعية الانتقادية في الأدب الجزائري، عبر مسارات وحقب تطوره. قد يكون وجودها هذا كظاهرة عامة وجدت في الأدب العربي ككل، ولو كان هذا التواجد بشكل بدائي تقليدي في أول الأمر. فالتجارب الشعرية لـ "الأمير عبد القادر الجزائري" التي اتسمت بشيوع الشكل الكلاسيكي التقليدي، في مبناها ومعناها، شملت على قيم المذهب الرومنسي، الذي عبر عن انكسارات آمال الشعب الجزائري، نتيجة انهزام وتراجع الثورات والانتفاضات الشعبية، أو بدافع المؤثرات الأجنبية التي بدأ يعرفها المجتمع الجزائري، في مختلف مجالاته المتاحة. هذه التجارب الشعرية، لم تكن لتخلو من النزوع الواقعي، الذي لم يبد في هذه التجارب، كما هو الحال في الآداب والثقافات الأوروبية. ومع ذلك يمكن اعتبار مثل هذه التجارب، والتي وإن لم

فتحي بوخالفه

تكن قد أسست للاتجاه الواقعي الانتقادي بصريح العبارة، في الأدب الجزائري، فقد أسهمت من طريق ما، في توجيه الشعر الجزائري الحديث، وجهة تقديمية جديدة، لا تقبل النمو والتطور، إلا ضمن الشرط الإنساني المقبول، الذي يتيح ذلك.

ووفق المنظور ذاته، الذي رصد تطور الرومنسية في "الجزائر"، فقد تلازم تطور الاتجاه الواقعي اندلاع الانتفاضات والثورات الشعبية. وعلى الرغم من الزخم الثوري، الذي أفرزته المقاومات الشعبية في "الجزائر"، فلم تتمكن هذه الأخيرة، من إفراز الأدب الذي تطلبه الجماهير الشعبية، من الناحية الاجتماعية. ربما عاد ذلك إلى ظروف واعتبارات تاريخية، عاشتها "الجزائر"، خلال الحقبة الاستعمارية، كانتشار الجهل والامية مثلا، نتيجة قصور التعليم على الفئات البرجوازية اليسيرة جدا في "الجزائر"، مما يؤثر على توسع قاعدة المقروئية. وحتى الممارسات "الليبرالية" التي كانت تفرض فرضا على البرجوازية الفرنسية، لم تكن في فائدة الإنسان الجزائري البسيط، الذي كان يعاني شظف العيش، وقسوة الظروف الاجتماعية، مما يؤثر على طبيعة وعي الفرد الجزائري، الذي هو نتاج وجوده الاجتماعي.

خلال الظرف التاريخي الذي ميزه الاحتلال الفرنسي في "الجزائر"، كان الأهالي الجزائريون عرضة لكافة أصناف القهر الاجتماعي والمصادرة، حتي فيما يتعلق بالثوابت الوطنية. وكان بإمكان اللغة العربية أن تنتج أدبا جزائريا راقيا، خلال ذلك الظرف التاريخي، لولا التحولات الاجتماعية والتاريخية السلبية التي لم تكن مطلقا، في فائدة الجماهير الشعبية الواسعة. وكان من المنتظر وجود أدب جزائري، يتجاوز حدود طروحات "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، في جرائدها ومجلاتها ونواديها. وثورة الفلاحين التي اندلعت سنة 1871م، رغم قوتها الشعبية وقيمتها التاريخية، لم تتمكن من إنتاج الأدب الجزائري المطلوب على المستوى الاجتماعي المتحول، نتيجة للظرف التاريخي السليبي الذي كانت تعيشه "الجزائر" وقتها. فقد ساهمت إلى حد ما، في إنتاج كتابات محدودة، كما أسهمت في إفراز واقع ثوري، شكل تراكما ثوريا، أضيف إلى جملة التراكمات التي عرفتھا المنطقة وسائر انحاء "الجزائر"، منذ سنة 1830م. لذلك قوبلت ثورة الفلاحين بقمع شديد على كافة المستويات، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

إن جملة الممارسات الاجتماعية، التي أفرتها الطبقة الكولونيالية في "الجزائر"، كان لها بالغ الأثر على المستوى الثقافي، من مصادرة اللغة العربية، ومنع حرية التعليم باللغة العربية؛ مثل

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور -

هذه الأساليب أدت إلى تحجيم دور اللغة العربية، والحد من تطور الثقافة العربية الأصيلة في "الجزائر". ومع ذلك فقد ظل الواقع الجزائري يرفض الجمود، بل ظل وفيًا لحركته التاريخية، وتطوراته الجدلية المستمرة، مسهما بذلك في خلق محيط ثوري أصيل، تمكن من حماية الأدب الجزائري من السقوط في حبال الطروحات الرجعية، ضمن علاقات إنتاج وأنماط توزيع، غير متكافئة على وجه الإطلاق.

مؤكد أن الظرف التاريخي السلبي، الذي صنعه الاستعمار الفرنسي، أسهم بقسط كبير في تطور الأدب الجزائري، وخلق أرضية ثقافية وأدبية، هي من صميم الخصوصية الحضارية الغربية؛ إلا أنه لم ينتج أدبا جزائريا واقعيا بروح انتقادية كما هو معروف، وفق تقاليد الفلسفة الواقعية في أوروبا. وفي ظل هذه الظروف التاريخية، التي كانت تنسم بالانسجام أحيانا، وبالتناقض في أحيان كثيرة، بدأت تظهر على الساحة الثقافية الجزائرية، كتابات باللغة العربية وأخرى باللغة الفرنسية، بتوجهات واقعية بدائية، تدين الاستعمار وتنتقد سياساته التعسفية، وتحاول تحقيق نوع من التعايش الإنساني، وفق شروط تاريخية راهنة وقتها. وجهت هذه الشروط التاريخية الأدب الجزائري بمختلف أشكاله وعناصره المكونة، نحو خيارات ثورية باستثناء بعض النماذج، التي كانت تقر بالقاعدة التاريخية القائمة آنذاك. رغم أن الأدب الجزائري وقتها، لم يكن يملك الآليات الفكرية والفنية، لتجسيد نماذج واقعية فعلية، على غرار رؤية "أونري دي بلزاك"، و"ليون تولستوي"، و"مكسيم غوركي"، مع ذلك لم تكن العناصر الواقعية غائبة، عن الأدب الجزائري الحديث. هذه العناصر التي طالما، حملت عناصر تناقضاتها، وكانت « مفيدة في بعض الأحيان في النشاط العملي لبعض فئات الشعب، على الرغم من السمات الرجعية الملزمة لها » (فلاديمير لينين، 1974، ص75)، كمنظور آخر لعملية التناقضات المستمرة، المصاحبة لأية ظاهرة فكرية واجتماعية كيفما كانت.

فمع فشل كل انتفاضة شعبية، أو مقاومة كانت تقوم بها الفئات الاجتماعية من أبناء الطبقات الشعبية البسيطة في المجتمع الجزائري، نتيجة قمع الاستعمار الفرنسي لها، كان يلاحظ حدوث انحسار لفئة من الكتاب والأدباء على ذواتهم، نتيجة الوقوع ضحية القيم الاستهلاكية للنظرة الرومنسية. مقابل ذلك يحدث انطلاق كبير وهام، لفئة من المثقفين الجزائريين، تعتمد تصورات اجتماعية وجمالية أكثر حداثة وجدة. هذه العملية الجدلية، التي ظلت تمارس حضورها وتطورها المستمر، على مستوى الأدب الجزائري الحديث، وتدفع هذا

فتحي بوخالفة

الأدب إلى الأمام، وتحافظ على تواجده في واقع الصراع والثورة، هي ذاتها التي ساعدت الأدب الجزائري الحديث، على تحقيق القفزة التاريخية النوعية فيما بعد.

وعلى المستوى الاجتماعي كانت هناك تحولات وتغيرات نوعية، في العلاقات الإنتاجية التي تحكمها الطموحات الاقطاعية الرجعية، والتي تطورت بدورها إلى علاقات رأسمالية، كرست سبل الاستغلال وساهمت في تعميق الوعي الجماهيري، بأهمية وقيمة الظرف التاريخي القائم. هذه التحولات الاجتماعية، أسهمت في تطور العملية التاريخية، ومكنت الثقافة الجزائرية، وسائر البنى الفوقية الاجتماعية الجزائرية، من الخروج من بوتقتها المغلقة والضيقة، ذات الأساليب التقليدية العتيقة. حيث تخلصت القصيدة التقليدية في شعر الأمير "عبد القادر الجزائري" من قدسيته التراثية، وتفككت البنى الداخلية للمقالة والخطابة، نتيجة عجزها أمام التحولات الرأسمالية الجديدة للقوى الاستعمارية، لتأخذ فيما بعد أساليب أكثر جدية ونجاعة وواقعية، رغم وجود الطابع الحماسي على مستواها، وكذلك سيادة النزعة الهروبية في بناها. غير أنها كانت تدعو في مضامينها إلى تبني أساليب الكفاح ضد القوى الاستعمارية، خصوصا بعد ضعف هذه القوى نتيجة اندلاع "كومونة" (أحداث) "باريس"، التي أسهمت في تنمية التوجهات الثورية في "الجزائر"، من الناحية الاجتماعية والفكرية، لاسيما في مجال الرواية، التي أسهمت في بلورة مفاهيم التاريخ، على مستوى السطح الاجتماعي، باعتباره الشرط الجدلي المسبق لما هو حاضر. فبدون فهم طبيعة العلاقة الجدلية بين التاريخ والحاضر، لا يمكن للوعي الإنساني أن يقدم الكثير. وربما أسهم بطرق مختلفة، ودون وعي موضوعي، في الحفاظ على القيم التقليدية البالية، المكسرة لأنماط الاقطاعية على المستوى الاجتماعي.

مقابل التحولات التاريخية الجديدة، التي أسهمت في ترسيخ الدعائم الأولى لنمو الوعي الثوري في "الجزائر"، لوحظ نمو محدود لبعض التيارات "السلفية" الدينية، التي كرست وعيا "رجعيا" بطبيعية المرحلة التاريخية الجديدة في "الجزائر"، من خلال اعتماد قيم دينية أقرب ما تكون من النمط "الخرافي"، المرسخ لتقاليد إيمانية، بعيدة عن الطروحات الموضوعية للفكر الإنساني. وطبيعي أن تكرر هذه القيم، الطروحات الاقطاعية البائدة، والتي غالبا ما تخدم المصالح الاستعمارية بالدرجة الأولى، وتعمق الفوارق الطبقية في المجتمع الجزائري. وقد أدى الشعر الشعبي الجزائري، دورا هاما في مقاومة مثل هذه التوجهات البالية، بترسيخ فكرة العمل

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

الثوري، للتحرر من رقة الاستعمار، التي طالما أعاقَت تطور العملية التاريخية والاجتماعية في "الجزائر"، إلى جانب العملية الفكرية والإبداعية.

نتيجة لهذه الأوضاع المتناقضة حد الصراع، كانت الفكرة الثورية على محك العمل المنتج، وبدأت الحركة الثقافية تتبنى المعايير الثورية، وإن بقيت عاجزة عن رؤية عمق الصراع الطبقي في "الجزائر" وقتها. ومع ذلك فقد بقيت تقاوم تقاليد البرجوازية الفرنسية بكل موضوعية، والتي كرسَت قيم الاستغلال والفوارق الطبقية، رغم الحماس الثوري الذي ميز القوى الوطنية وقتها. وهو ضعف تاريخي صاحب تطورات الواقعية الانتقادية في أوروبا، والتي شهدت أيامها تكوينات طبيعية للطبقة البرجوازية ولأنماطها الاقتصادية.

فمعظم كتاب تلك الحقبة التاريخية الحساسة في "الجزائر"، كانوا واقعيين تحت تأثير تقاليد الرأسمالية الأوروبية، التي نقلت أساليبها من باريس، معطية الأهمية لكل ما هو "ميتافيزيقي" و"غيبى"، لا علاقة له باهتمامات وواقع الجماهير الشعبية، في وقت لم تكن الثورة التحريرية بعد، قد اتخذت كل أبعادها الطبقية، ولم تحدد بعد خصوصية وعيها التعبيري.

ولم يأخذ التطور مساره الإيجابي الصحيح، إلا بعد ظهور البدايات الأولى للتباين الطبقي، وتكاثر القوى الوطنية فيما بينها، والتي تمكنت إلى حد كبير من عزل آثار الفكر الرجعي، ودفعه إلى التساقط التاريخي، مبعدة عنه الهالة المثالية القائمة على فكرة جوهريّة، هي وحدة الطبقات الاجتماعية في "الجزائر". مع أن هذا المبدأ، هو في حقيقته مظهر خارجي فقط. حدث هذا في وقت كانت فيه التوجهات الرومنسية، تنمو بشكل كبير بفعل الفشل الكبير، الذي فرضته الظروف التاريخية والمتمثلة أساسا في فشل الثورات الشعبية، التي سبقت ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954م، وقبلها ثورة الفلاحين التي اندلعت سنة 1871م.

إن الفترة التاريخية المحصورة ما بين سنتي 1871م-1954م، مكنت الرأسمالية الفرنسية، من تطوير اقتصادياتها في "الجزائر" بشكل كبير وملفت للنظر على المستوى القاري والعالمي. حيث تمكنت الرأسمالية الفرنسية، من توسيع نطاق الزراعة، وفي مقدمتها الزراعات الصناعية، على حساب الزراعات الأولية التي تمثل الاستهلاك الأساسي للسكان الجزائريين. وهذا التطور الذي شهده الاقتصاد البرجوازي الفرنسي في "الجزائر" في الإنتاج ووسائله، أدى إلى تغيير هام جدا، في أنماط العلاقات الإنتاجية للاقتصاد الإقطاعي، الشيء الذي أفرز وعيا تاريخيا أكثر تقدما، تجسد في مختلف الثورات والانتفاضات الشعبية، التي كان الاستعمار الفرنسي يقوم

فتحي بوخالفه

بقمعهما، وفي مقدمتها ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954م، والتي مثلت الثمرة الشرعية للوعي التاريخي و الوطني الجديد.

صاحب هذا التطور التاريخي والاقتصادي، تطورا هاما على المستوى الثقافي؛ إذ حصل الجزائريون على بعض الحقوق المعنوية، كالحق في تدريس ودراسة اللغة العربية، التي كانت تعتبر لغة أجنبية في "الجزائر" منذ سنة 1830م. كما أن "الخطابة" و "المقالة" و "الشعر"، لم تعد الأوعية التعبيرية والفنية التي باستطاعتها احتواء كافة هموم وانشغالات الفئات الشعبية الجزائرية. فظهرت الرواية باللغة العربية بعد سنة 1945م، على يد الكاتب الجزائري "أحمد رضا حوحو"، وكذا القصة القصيرة. حيث بدأت تتأسس تحولات جديدة، على المستوى الاجتماعي والفكري أسقطت الهيبة الاستعمارية. هذه التحولات جعلت مختلف الأحزاب والتنظيمات الاجتماعية والإصلاحية في "الجزائر"، تعيد النظر في طروحاتها النظرية والعملية لتجعلها أكثر واقعية.

نتيجة لهذه التعقيدات الجديدة، التي شهدتها الواقع الجزائري، بعد الحرب العالمية الثانية. ونتيجة لعجز الأساليب التعبيرية القديمة، على احتواء انشغالات الإنسان الجزائري، كان لزاما ظهور كتابات أدبية أكثر واقعية، تجسدت في أعمال الكاتب "أحمد رضا حوحو" بداية، من خلال أعماله القصصية، وكذا كتابات أعضاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، على اختلاف طرق ونماذج وعيهم، غير أن كتاباتهم خلال تلك المرحلة، كانت أكثر واقعية وبرؤى مختلفة.

ظهر التلاؤم مع الواقع الجزائري والتفاعل معه بروية واقعية، في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وقبل ذلك في كتابات بعض الجزائريين بداية، إلى جانب إسهامات المعمرين؛ فكانت هذه العوامل بداية فعلية لتطور اتجاه واقعي، يحمل منظورا جديدا في الكتابة الروائية في "الجزائر". واستمرت هذه التطورات مع كتاب جزائريين على درجة من الاقتدار، إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية. ثم تطورت الكتابة السردية في "الجزائر"، بعد الاستقلال على يد نخبة هامة من الكتاب أمثال: "محمد ديب"، "كاتب ياسين"، "مولود معمري"، "آسيا جبار"، "مالك حداد"، "رشيد بوجدره" وغيرهم... دون نسيان الجهود الروائية الكبيرة، التي قدمها الكاتب "مولود فرعون" إبان فترة الاحتلال الفرنسي، إلى حدود بدايات مرحلة الاستقلال الوطني.

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

وإذا كانت الرواية الجزائرية قدمت نماذج حية لتمثل الاتجاه الواقعي، على كافة مستوياتها الفنية والمضمونية. فلا بد من الإقرار بأن البعض من هذه النماذج، اكتفى بتقديم قصة من الواقع المحلي، دون تقديم سبل وآليات التغيير، سواء في الجانب المضموني أو في الجانب الشكلي للرواية. «وانعدام التطابق هذا، تضخم خلال حرب الجزائر التي أنتجت في أغلب الأحيان، أدبا متسما بمحتوى ثوري حقيقي (...)» إن جدارة كاتب ياسين تتمثل في كونه أدرك على الكاتب الثوري الذي اختار النضال بالقلم أن يكون ثوريا كذلك في مجاله الخاص، مجال الكتابة. وتعتبر روايته الرائعة "نجمة" مثالا دالا على هذا الموقف» (عبد الكبير الخطيبي، 1971، ص19، 20).

ظل الكتاب الجزائريون على اختلاف توجهاتهم الفكرية، يقدمون في أعمالهم صورة حية لتناقضات المجتمع الاستعماري، فصارت الرواية الواقعية التي وضعوا أسسها، ذات مفهوم جمالي متقدم وهام، بعد أن كانت تسيطر عليها فئة وجيزة بين كتاب جزائريين وكتاب معمرين، من ذوي الميولات الاستعمارية والإدماجية. لتصبح بعد ذلك الرواية الجزائرية الحديثة، على يد الكاتب "محمد ديب" «إحدى المقومات الأساسية لإدراكنا الحقيقة» (ميشال بوتور، 1971، ص5)، حيث عكست الرواية الجزائرية الحديثة المكتوبة باللغة الفرنسية، سائر تناقضات المرحلة الاستعمارية في "الجزائر". كما عالجت بعمق مسألة البحث عن الذات وفق منظور الإصلاح الذي قدمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خصوصا من لدن كتاب الرواية الجزائرية باللغة العربية. وهو المنظور الذي بدا مختلفا تماما، عن منظور كتاب الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. لذلك يلاحظ أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم توجهاتها "السلفية" المثالية، أسهمت إلى حد هام في تقديم رؤية تجديدية للرواية الجزائرية الحديثة باللغة العربية، في ظرف تاريخي عصيب كانت تعيشه "الجزائر".

جاء التجديد الحقيقي في الرواية الجزائرية الحديثة، خلال فترة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، على يد كتاب الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. ولا يعني هذا أن الكتاب الجزائريين انطلقوا من الفراغ في كتاباتهم الروائية. فقد كان التراث الحضاري للأمة الجزائرية والعربية، بما حواه من أبعاد ثورية تغييرية، مصدرا هاما لإبداعاتهم السردية، بحسب إمكانات كل كاتب، في فهم واستيعاب التراث، وتطويره بعد ذلك، تبعا لطبيعة وأنماط المتون السردية الخاصة بإبداعاته. من هنا كان تجديد الكتاب الجزائريين، في المضامين السردية واللغة

فتحي بوخالفة

الأدبية، مع الحفاظ على النمط الأصل للمتن السردى. فقد تمكنوا من تصوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية الصعبة، التي عاشها سكان البوادي والقرى. ومنهم من عاد إلى الماضي، ليس بدافع الهروب من حثبات الحاضر، إنما بدافع الالتزام التاريخي العميق، بتصوير عينات من حياة المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي، والتركيز على العادات والقيم التقليدية، التي تتميز بها تلك العينة الاجتماعية.

تمكن الكاتب الجزائري "مولود فرعون" من تصوير طبيعة الحياة الاجتماعية الجزائرية، والوقوف على أسباب وعوامل البؤس والحرمان، الذي عاشته القرية الجزائرية، نتيجة ممارسات الطبقة الكولونيلية في "الجزائر". حيث استفاد كثيرا من المنجز الروائي الجزائري السابق، كما استفاد أيضا من قدراته التعبيرية، التي هي نتاج علاقاته المستمرة بحياته اليومية. فقد كانت القيمة الإنسانية لأعمال الكاتب، أكبر بكثير من قيمتها الفنية. حيث مثلت هذه الأعمال جزءا هاما من حياة الشعب الجزائري الفقير. وتمكن الكاتب من خلال إمكاناته الفنية، إضافة الكثير إلى الرصيد الثوري للأدب الجزائري الحديث، وفتح أبواب واسعة للواقعية الانتقادية، أمام الأجيال الثقافية والفكرية التي ورثت هذا الأدب.

يعتبر الكاتب الجزائري "محمد ديب" ضمن سياق الواقعية الانتقادية، أنموذجا جديدا. حيث كان أكثر وعيا وأكثر تطورا من غيره من الكتاب الجزائريين؛ إذ حاول تجاوز تناقضات الرواية الجزائرية، « فانطلق لإظهار التطور الخاص، للمجتمع الجزائري، مبينا أن الشخوص ليسوا سجناء للحياة اليومية. ففي الوقت الذي تحاول فيه البرجوازية الجزائرية نفي الكيان الجزائري، وطمسه، وتقويضه، أبرز "محمد ديب" وجود هذا الكيان ورسم تفاصيله بأشكال لافتة حتى يظهر بوضوح للعيان » (واسيني الأعرج، 1986، ص368).

من خلال هذه الطروحات المتعلقة بالرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، يمكن الفهم أن هذه الرواية التي ظهرت خلال تلك المرحلة التاريخية، كانت واقعية إلى حد بعيد، رغم التناقضات التي صاحبت تطورها. وواقعيتها كانت نتاجا لشروط موضوعية فرضتها طبيعة ثوراتها وانتفاضاتها. والتي كانت ثورات مكلفة كثيرا من حيث التضحية، لأنها كانت صداما مباشرا مع الاستعمار الفرنسي، بكل ما لهذا الاستعمار من وسائل وإمكانات وطاقات، ومميزات حضارية تغريبية، وبين شعب أراد تحقيق شخصيته وإثبات ذاته و وجوده.

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

هذا التراث الروائي الجزائري الواقعي، المتميز بزخمه الثوري، هو الذي أسس لإنجازات روائية هامة جدا، لكتاب ما بعد الاستقلال، في ظل التحولات التاريخية الجديدة.

هذا الموروث السردي، هو الذي كان يقي الأدب الجزائري من السقوط، في مطبات القوالب الشكلية الجاهزة، والسوداوية التشاؤمية التي لا تجد لها مبررات ودواعي فنية. ومعظم الأعمال الروائية التي صدرت خلال فترة السبعينات وما بعدها، وفق السمات الواقعية الانتقادية، تجاوزت بشكل كبير حدود الإنجازات الفنية، التي عرفتها أعمال روائية سابقة، على غرار رواية "الحريق" للكاتب "تور الدين بوجدر"، هذا العمل الروائي الذي ظهر سنة 1957م، والذي يكاد أن يكون العمل الوحيد خلال تلك الفترة التاريخية، المتميز بميزات واقعية انتقادية واضحة رغم بداياتها الأولى. وربما يكون العمل الذي تجاوز طروحات روايات جزائرية عديدة، بسمات واقعية أفرزتها مرحلة ما بعد الاستقلال.

غير أن الضعف الذي ميز رواية "الحريق" للكاتب "تور الدين بوجدر"، هو أن الواقعية الانتقادية لهذه الرواية كانت قد ورثت الكثير من تقاليد الواقعية الأوروبية، نتيجة ثقافة الكاتب المزدوجة ما بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الفرنسية الغربية. لكن واقعية الرواية بقيت حبسية الواقع المحلي المتخلف، الذي لا يقوى على تبني دواعي التعبير وتقديم البدائل. إلى جانب اهتمام الرواية بالحيثيات الصوفية والهامشية، التي طالما أبعدتها عن هدفها التاريخي والجوهري، وهو تجسيد حيثيات ثورة التحرير. حيث لم تتمكن الرواية من التعبير عن هذا الحدث التاريخي بشكل فني مميز. وطبيعي في هذه الحال لا بد من تبني واقعية موضوعية، تدرك كافة العناصر التاريخية المسببة لحالة التخلف، التي كان عليها الواقع الجزائري، خلال حقبة زمنية سابقة.

إن الزخم الثوري الذي ورثته الرواية الجزائرية، إضافة إلى الأعمال المنجزة خلال فترة السبعينات من القرن الماضي، أسهمت في حماية الإنتاج الروائي الجزائري الحديث، من كافة عوامل السوداوية والتشاؤمية اللتان استهلكتا الكثير من الإنتاج الروائي الأوروبي. كما استطاعت الرواية الجزائرية، الدفع بالاتجاه الواقعي الانتقادي نحو آفاق مميزة في الإبداع، لتصحيح مفاهيمه السابقة عن الواقعية. وطبيعي جدا أن الأعمال الروائية الجزائرية المنجزة، ليست كلها على درجة من المساواة من حيث تمثل أسس وقيم الواقعية الانتقادية، فالملاحظ أن العديد من هذه الأعمال لا يزال متأثرا بتوجهات الرومنسية، أو تقاليد الرواية الكلاسيكية

فتحي بوخالفه

بأكثريّة خصائصها الفنيّة. غير أنّها تمكّنت من طرح قضايا المجتمع الجزائري للنقاش والمساءلة، والعودة مجدداً بالموضوعات التاريخيّة للبحث في حياة الأسر الجزائريّة، من خلال ما فرضته عليها البرجوازيّة الفرنسيّة، من عوامل التعاسة والبؤس والحرمان.

إنّ الإمكانات الفنيّة التي تميّزت بها رواية "ريح الجنوب" للكاتب "عبد الحميد بن هدوقة"، جعلت النص يطرح مسألة التفاوت الطبقي في المجتمع الجزائري لما بعد الاستقلال بوضوح تام. كما اقترب النص أكثر من المشاكل الاجتماعيّة لمجتمع "جزائر" ما بعد الاستقلال، سواء تلك المشاكل التي ورثها المجتمع الجزائري عن الاستعمار الفرنسي، أو المشاكل التي رافقت مرحلة البناء الوطني، والتحوّلات الديمقراطيّة الجديدة. فشخصيّة "رابح" الراعي يحاول النص من خلالها أن يعكس، هموم ومشاكل طبقة اجتماعيّة بأكملها. فقد سعى النص لتصوير مظاهر التناقض الاجتماعي، محاولاً بذلك المساهمة في تشييد القيمة الفنيّة والفكريّة للاتجاه الواقعي الانتقادي. ومع أنّ رواية "ريح الجنوب" صدرت قبل صدور ميثاق الثورة الزراعيّة في "الجزائر"، فقد كانت تحمل قيم هذا الميثاق ومبادئه الاجتماعيّة والقانونيّة. فخاصيّة التنبؤ التي تميّزت بها الرواية أثبتت صدقاً فنياً مميّزاً، من حيث تقديم البدائل التاريخيّة والاجتماعيّة، والابتعاد عن السقوط في غياهب المصادفة و"القدرية".

حاول الكاتب "مرزاق بقطاش" في روايته "طيور في الظهيرة" الاستفادة أكثر من تاريخ "الجزائر"، ومن وقائع الثورة التحريريّة. وهو الاتجاه ذاته الذي لوحظ على رواية "ما لا تدرّوه الرياح" للكاتب "محمد العالي عرار"، التي ساد فيها إلى حد كبير الاتجاه الرومنسي، وتحميل الشعب المسؤوليّة التاريخيّة، مع أنّه لم يختر لنفسه حياة البؤس والشقاء والاستغلال. ثم كانت التجربة الثانية للكاتب "مرزاق بقطاش" في رواية "الطموح"، والتي سارت على المنوال ذاته في تجريته السردية الأولى، مع شيء من الاختلاف من حيث الطروحات المضمونيّة. غير أنّ تجربتين تشتركان في نقد التناقضات الاجتماعيّة التي ميزت المجتمع الجزائري، والموروثة أساساً عن التقاليد البرجوازيّة الفرنسيّة، والتي رافقت مرحلة التطور الاجتماعي لـ"جزائر" ما بعد الاستقلال.

إنّ رؤية العالم المحدودة، نتيجة الحاجز الفاصل، بين النص والتصوير الموضوعي للواقع الاجتماعي، والتي انعكست في جوهر الوعي التاريخي دفعت بنص رواية "على الدرب" للكاتب

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور-

"محمد الصاق حجي" إلى التخلي عن المنظور الحماسي الذي يرفض الواقع على شاكلته القائمة، وسائر المظاهر الاجتماعية الشاذة التي لا تدرك منها غير أشكالها الظاهرية. وعلى النقيض من ذلك فقد كان الصدق الفني، الذي تميزت به رواية "ريح الجنوب" سبيلا أمثالا لتجاوز الوضع الاجتماعي البائس، إلى وضع تاريخي جديد أكثر إشراقا. وهذا نتاج إيجابية الوعي التاريخي بقيمة وأهمية، التحولات الديمقراطية الجديدة، التي ميزت المجتمع الجزائري لما بعد الاستقلال، عندما تغيرت طبيعة العلاقات الاقتصادية الجديدة، التي صاغت أنماط علاقات الإنتاج والتوزيع.

وحتى رواية "قبل الزلزال" للكاتب الجزائري "علاوة بوجادي"، لم تبتعد عن خطوط الحماس والاندفاعية رغم بعض مواطن الاتزان الإيجابية التي تميزت بها الرواية، من الجانب الشكلي. فمضمون الرواية يؤكد أن الثورة الزراعية، لم تأت بقرارات صاغت السلطة الثورية وقتها في البلاد، إنما هي نتاج نضال الفلاحين الجزائريين، والصراعات التي خاضوها على امتداد التطورات التاريخية. ومن خلال هذا الطرح يحاول النص، تجاوز المقولات البيروقراطية التي صنعتها القوى الرجعية التي بدأت تجد لها طريقا للتنفذ داخل دواليب السلطة، إضافة إلى الوجوه الاقطاعية التي كانت تسعى دائما، لإحباط أي مشروع تاريخي لتنمية ونهضة البلاد. ومع ذلك لم يتمكن النص من فهم، طبيعة جوهر الصراع الطبقي في المجتمع، رغم أنه كان بعيدا إلى حد ما، من السقوط في حبال الاغتراب المجاني، الذي لوحظ على نصوص روائية أخرى، كرواية "الطموح" لـ "محمد العالي عرعار" مثلا.

إن النظرة للواقع كظواهر متحدة ومتجانسة لا تقبل الانفصال، جعلت الكتاب الجزائريين يلتقون في وجهات نظر فكرية وفنية، وحدت جهودهم الإبداعية. وبقدر ما كانوا يلتقون في زوايا عديدة، كانوا يختلفون أيضا حول جزئيات واقعية، إلا أنهم نظروا للمجتمع الجزائري، من وجهات نظر **Des perspectives** مشتركة في الكثير من الأحيان، كون الواقع الحياتي في نظرهم، مركز الحياة والحركة والتطور. ف نماذج بشرية مثل الفلاح المستغل البائس، والطبقة البروليتارية (العمالية) الهشة، كانت حاضرة بقوة على مستوى الكثير من الأعمال الروائية، التي صدرت عقب بداية مرحلة الاستقلال الوطني، ضمن توجهات الواقعية الانتقادية. فقد بقي ظهور هذه النماذج البشرية، كشخصيات روائية فاعلة، قائما بشكل كلي أو جزئي، وضمن أطر اجتماعية واسعة أم محدودة، على غرار كتابات "عبد الحميد بن هدوقة"، "الصادق

فتحي بوخالفة

حجي"، "علاوة بوجادي"،... وغيرهم من الكتاب. كما لم تغب عن كتاباتهم معالم ثورة التحرير، والتي مارست حضورا كبيرا سواء في الرواية الجزائرية باللغة العربية، أو الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، إما بالمعايشة الحياتية المباشرة، أو الاعتماد على مخزون الذاكرة، أو التخيل الاستشفافي.

خاتمة :

حاولت النماذج الروائية التي ذكرت سابقا، تجسيد سمات وملامح الواقعية الانتقادية في الأدب الجزائري الحديث، من خلال أبنيته السردية الحديثة. ورغم أن هذه النصوص لم تتوصل إلى إدراك طبيعة وأنماط، الصراع الاجتماعي القائم إلا في حالات نادرة، فقد توصلت إلى تقديم رؤية سردية، مكنت من التعبير عن حقبة تاريخية متحولة في الواقع الاجتماعي الجزائري الحديث والمعاصر.

إن إدراك الأبعاد الجوهرية للصراع الاجتماعي، يحتم إدراك خلفياته التي صاغته. فاللوحنة الفنية للعمل الأدبي الحقيقي يتوقف كمالها، على اكتمال الصورة التي قدمها الكاتب، للعوامل التاريخية والجوهرية التي حددت معالم العالم، التي ينبغي تصويرها. ولا يمكن حدوث ذلك، إلا من خلال خبرة النص بطبيعة الوجود الاجتماعي، وبحسب إدراكه لخصوصية الصراع الطبقي القائم، الذي حددته عوامل تاريخية متعاقبة. مثل هذا الوعي هو القادر على الكشف، عن العوامل الجوهرية الاجتماعية، التي تمكن النصوص الروائية، من تجاوز اللحظات المعيشية القائمة في أقصى ظروفها وتحولاتها المادية.

من هنا كان الصدق الفني في الأعمال الروائية الواقعية الكبرى، يقوم على أساس أن هذه الأعمال، نابعة من الحياة المعيشية نفسها التي ظهرت فيها تلك الأعمال. كما أن الميزات الفنية لهذه الأعمال، انعكاس لطبيعة البنى الاجتماعية والاقتصادية، للظروف الواقعية التي نشأت فيها تلك النصوص.

-المراجع :

- 1 -ينظر صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1978، ص05
- 2-المرجع نفسه، ص07
- 3-ينظر المرجع نفسه، ص12

سمات الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية الحديثة-دراسة في النشأة والتطور -

- 4- جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية الأوروبية، ترجمة: أمير إسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الأولى، 1972، القاهرة، مصر، ص44
- 5- المرجع نفسه، ص46
- 6- المرجع نفسه، ص52
- 7- المرجع نفسه، ص69
- 8- المرجع نفسه، ص73
- 9- المرجع نفسه، ص153
- 10- فلاديمير لينين: مقالات حول تولستوي، دار التقدم ، موسكو -الاتحاد السوفياتي، ط1، 1974، ص04
- 11- فلاديمير لينين: في الإيديولوجيا والثقافة الاشتراكية، دار التقدم، موسكو-الاتحاد السوفياتي، ط1، 1974، ص74
- 12- ينظر في ذلك ريموند وليمز: الواقعية والرواية المعاصرة، ترجمة: عبد الواحد محمد، مجلة الأقاليم العراقية، العدد 11، العراق، 1981، ص208
- 13- جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية الأوروبية، ترجمة: أمير إسكندر، ص12
- 14- فيصل السماق: الواقعية في الرواية السورية، دار البعث الجديدة، ط1 ، 1979، دمشق، سوريا، ص31
- 15- جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، ترجمة د/ صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ، العراق، ط1، 1978، ص13
- 16- محمد كامل الخطيب، وعبد الرزاق عيد: عالم حنا مينة الروائي، دار الآداب ، بيروت ، لبنان، ط1، 1979، ص150
- 17- فلاديمير لينين: في الإيديولوجيا والثقافة الاشتراكية، دار التقدم، موسكو -الاتحاد السوفياتي، ط1، 1974، ص75
- 18- عبد الكبير الخطيبي: الرواية المغربية، ترجمة: محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، عدد 02 الرباط، المغرب، 1971، ص19، 20
- 19- ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات ، بيروت-لبنان، ط1، 1971، ص05
- 20- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر،-بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص368